الشخصية الموصلية

دراسة سوسيو انثروبولوجية

موفق ويسي محمود(*)

المقدمة

تعد دراسة الشخصية القومية من الدراسات التي يمكن ان تثير الكثير من ردود الأفعال، اما بسبب المواقف المسبقة تجاه جماعة ما، واما بسبب التحيزات التي يرتكبها الباحثون وخاصة عندما يكونون بصدد إضفاء صفات مميزة على جماعة بعينها.

ومثل هذه المشكلات، وربما غيرها يمكن ان تثيرها كذلك دراسة الشخصية الإقليمية أو المناطقية، وعلية فإن دراسة الشخصية الموصلية وبقدر ما تتحلى به من جرأة وتكتسب فيه من أهمية فإنها تثير تحفظات عديدة....

الأهمية تأتي من منابع عدة أولها علمي حيث الجرأة في تناول موضوع يكاد يكون متوارياً تماماً منذ اكثر من نصف قرن باستثناء محاولات نادرة هنا وهناك، وثانيها ثقافي يتمثل في جرأة من نوع جديد تدعي القدرة على تشخيص صفات لشخصية مدينة من خلال تحديد المكون الأساس لها، وثالثهما سياسي وهو ما يمكن وصفه بالجرأة كذلك إذ قد تفتح الباب حالياً أمام أدعياء يستخدمون مثل هذه المصطلحات لبذر بذور الشقاق.

(*) أستاذ الانتثروبولوجيا الثقافي المساعد - قسم علم الاجتماع - كلية الآداب / جامعة الموصل.

اما التحفظات فأولها يتعلق بعن أية شخصية موصلية نتحدث، تلك الشخصية التقليدية، أم هذه التي تمتد إليها أذرع التغيير وعوامله...؟

والتحفظ الثاني هو سؤال مهم – هل هناك شخصية موصلية فعلاً؟ وهل ان الموصل بوصفها مدينة تجارية يتصف أبناؤها بصفات أساسية تجمعهم، أم انها ليست – مثل غيرها من المدن الكبيرة – إلا بوتقة تنصهر فيها العديد من الشخصيات "المناطقية" ويترك للحوادث تقرير أي السمات تظهر اكثر وضوحاً من غيرها...

مشكلة البحث

ثلاثية (المجتمع – الثقافة – الشخصية) ليست مفصولة عن تيار الزمان ولا عن تضاريس المكان، لذا فإن التعرف على المكون التأريخي وأحداثه التي جرت على ساحة المكون الجغرافي يمكن أن يوضع المحددات الأساسية التي تساهم في إعطاء المجتمع سماته الخاصة البنائية منها والثقافية والأخيرة هي الموجه الأساس والمرجعي للسلوك الفردي والجماعي، وعليه فإن نظرة متفحصة على الوضع الثقافي وأنماط التنشئة الاجتماعية يمكن أن توفر دلالات مهمة في تحديد السمات الشخصية العامة التي يشترك فيها أبناء المجتمع.. والموصل مدينة وارثة لواحدة من اكبر إمبراطوريات العالم القديمة هي الإمبراطورية الآشورية التي توصف بإنها إمبراطورية محاربة، فضلا عن كونها (الموصل) وسيطاً تجارياً على ملتقى شبكة مواصلات عالمية الأمر الذي جعل منها بوابة مهمة من بوابات العالم وأدى إلى مزج ثقافتين أساسيتين، محاربة وتجارية أي نظامين من القيم تداخلا ليحددا نمط الشخصية الموصلية.

أهمية البحث والحاجة إليه

يزعم الباحث ان لبحوث الشخصية القومية، ومثلها بحوث ودراسات الشخصيات المحلية إذا أمكن تحديدها أهمية بالغة تتعلق بـ:

أولاً: الفهم الذي يحدد طريقة التعامل مع هذه الشخصية سواء على المستوى الرسمي حيث إنّ خطط التنمية يمكن ان تعوّق لأسباب اجتماعية ونفسية أو على المستوى الشعبي حيث ان الفهم المتبادل للشخصية وبالتالي دوافع السلوك يمكن ان يسهل الكثير من مواقف التفاعل التي تعتمد أساسا على الفعل ورد الفعل المتوقع.

ثانياً: التنبؤ بالخطوط العامة للسلوك المتوقع في إطار عملية التغيير المتوقعة في وقتنا الحالي بغض النظر عن موقفنا السياسي من هذه العمليات.

ثالثاً: إمكانية ضبط السلوك أو ضبط نتائجه على الأقل، وتحديد الاحتياجات اللازمة لذلك توجيه عمليات التنمية والتغيير بما يؤمن نجتحها في بيئة اجتماعية ونفسية مفهومة بقدر كافٍ.

منهج البحث

يعتمد البحث منهج دراسة الحالة على وفق المنظور السوسيو انثروبولوجي.. مع محاولة أولية لاستقراء تاريخ المدينة – بوصف الباحث أحد أبناء مجتمع البحث.

أهداف البحث

1. تحديد أهم محددات الشخصية.
2. الكشف عن السمات الأساسية للشخصية الموصلية.

دراسات الشخصية القومية . . . استخلاص نتائج عامة

كان للدكتور علي الوردي فضل السبق في فتح باب النقاش حول موضوع الشخصية القومية في الوطن العربي عندما قدم محاضرات عن الشخصية العراقية في كلية الملكة عالية عام 1951، وإبتداءً منذ ذلك التاريخ اصبح موضوع الشخصية العراقية من الموضوعات المثيرة للجدل سواء على صفحات الجرائد والمجلات المحلية أو المجالس الخاصة، وشارك فيه أناس من كل المشارب بين مؤيد خجول ومعارض غاضب... ومن أمثلة ذلك المناظرة التي جرت بين الدكتور الوردي والدكتور عبدالجليل الطاهر على صفحات جريدة التآخي في العام 1971، والمحاولة اللاحقة المتأخرة زمنياً والتي كان طرفها الناقد الدكتور معن خليل عمر على صفحات "أفاق عربية" في العام 1989، وغير ذلك العديد من الكتب التي هاجمت الدكتور الوردي أو تحاورت معه لكشف منابع فكرته هذه[1].

وأكاد ازعم ان دراسة الوردي عن الشخصية العراقية كانت المنطق لجميع دراسات الشخصية القومية في الوطن العربي والتي جاءت جميعها بعد سنوات عديدة من نشر الوردي لدراسته، ولعله كان للردود المثيرة والمساجلات بين الوردي وخصومه الكثيرين صدى طيب آثار الاهتمام الكبير بهذا الموضوع فتوالت دراسات مهمة منها دراسة د. حامد عمار عن الشخصية المصرية [2] .. ودراسة د.

(1) انظر مثلاً: غلام حسين الموسوي الأفغاني، الرد على الدكتور الوردي، مطبعة اسعد، بغداد، 1972.
حميد المطبعي، على الوردي يدافع عن نفسه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بغداد، 1987.

(2) عمار حامد، في بناء البشر، دار المعرفة القاهرة، ط2، 1968، ص 88-115.

كمال دسوقي عن الشخصية السودانية [3] ثم تلتها دراسات الجيل الثاني عن الشخصية القطرية[4] والشخصية الإسرائيلية[5] والشخصية العربية[6].

وأقيمت الندوات الفكرية حول الموضوع [7]. وبشكل عام كان هناك اتجاه مؤداه اعتقاد الباحثين الاجتماعيين بوجود شخصية قومية عربية ناتجة عن التأريخ المشترك والثقافة المشتركة والآمال الواحدة للامة العربية وان الشخصيات "القطرية" لكل بلد من البلدان العربية إنما تمثل تنويعات فرعية على اصل الشخصية العربية حيث تشكل ثقافة كل بلد ثقافة المحيط إلى الخليج.

ومن الواضح ان هذه الدراسات هي صدى للأفكار القومية التي بلغت في مرحلة الستينات والسبعينات من القرن العشرين اوجها وآثرت على مدى جيلي واسع وكان هؤلاء الباحثون بعض ورثة تلك الحقبة...

ثم عرفنا مرحلة تالية خفتت فيها اللهجة القومية، وانكفأت العديد من الدول العربية (بالمعنى السياسي) على نفسها وتبعتها بدرجة أو بأخرى شعوبها. فإذا بتلك الموجة من دراسات الشخصية القومية تنحسر وحلت محلها دراسات تطبيقية، قطرية، بما يمثل الصدى لمؤثرات المرحلة الأمريكية في العالم العربي والتي

(3) دسوقي، كمال، دراسة استطلاعية في الشخصية السودانية، في لويس كامل مليكة، قراءات في علم النفس في البلاد العربية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965.

(4) العادلي، فاروق محمد، الصياغة الاجتماعية مع مشروع مقترح لدراسة الشخصية القطرية، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد (9)، 1986.

(5) حنفي، قدري، دراسة في الشخصية الإسرائيلية (الاشكنازيم)، جامعة عين شمس، مركز بحوث الشرق الأوسط، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، 1975.

(6) يسين، السيد، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، دار التنوير بيروت، ط3، 1983.

(7) نعيم، سمير، ندوة الشخصية العربية والتحدي الحضاري، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، السنة 11، العدد 2، 1983.

دخلت بلادنا عبر بوابة الصلح مع الكيان الصهيوني وعلى مسارات، القاهرة، وعمان والكويت والرباط وغيرها من أوائل أنظمة التطبيع. وفي العراق الذي يحمل راية القومية والوحدة حظرت كتابات علي الوردي لان تحليله الاجتماعي ووصفه للشخصية العراقية كان يتعارض مع الصياغات الايديولوجية للنظام البعثي وتصوراته للمجتمع العراقي..

وفي إطار التركيز على نمط مجتمعي حديث في السياسة الدولية حيث بدأت مرحلة العولمة وما رافقها من ضمور مفهوم الدولة القومية، وسعي الدول للتقارب وظهور الكيانات الإقليمية الموحدة في مواجهة الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية للولايات المتحدة وخاصة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانهيار مؤسساته.. الأمر الذي اضعف المفهوم القومي حيث لم تعد حدود الدولة ومصالحها ومصادرها الاقتصادية متطابقة مع مفهوم الشعب المرتبط بروابط الدم والقومية أو العرق، مما يوضح سبب تراجع دراسات الشخصية القومية وظهور – بدلاً عنها – الاهتمام بموضوعات الثقافات الفرعية (وبالتالي انعكاسها على نمط شخصية محلية) وكيفية إيجاد علاقة تضامنية بين هذه الثقافات الفرعية في إطار المجتمع الكبير الذي تكونه، وتم إيجاد الحل في المجتمع المدني الذي يحق فيه للأفراد ان ينتظموا بالطريقة التي يشاؤون بكفالة القانون للحريات المدنية على ان تتولى الدولة القواعد المنظمة الأساسية وتتولى هي الأنشطة ذات الطبيعة السياسية والعامة.

ويفسر لنا هذا التحول لاهتمام الذي نتوقعه لدراسات الشخصية "المناطقية" بوصفها تمهيداً لدراسة أنماط من الشخصية ترتبط كلاً منها بنمط ثقافة فرعية – حتى يصبح من المتوقع دراسة الشخصية الأساسية لثقافة فرعية قائمة على أساس مهني، أو عرقي، أو طائفي، على خلفية الثقافة المشتركة لمجتمع سياسي كبير.

مفهومات أساسية

في موضوع مثل الذي بين أيدينا تتداخل المفهومات وما تشير إليه، بحكم اشتراك اكثر من علم في دراسته، فالشخصية أحد الموضوعات المفضلة في علم النفس، وهي كذلك في علم النفس العيادي، وفي موضوعاتها يدلي علماء الاجتماع والانثروبولوجيا بدلائهم – كما انها من الموضوعات الشائعة في الكتابات الأدبية التي تتناول بالتحليل القصة والرواية والسيرة الذاتية، ناهيك عن المعاني المختلفة التي يتداولها العامة في أحاديثهم.. وقد تختلف مقاصد المختصين حتى إنْ استخدموا مصطلحات وتعبيرات متشابهة، وهو أمر ليس بمستغرب في الدراسات الإنسانية.. عليه تقتضي الضرورة تحدد معاني المفهومات دفعاً للالتباس.

1. **الشخصية:** جمع "جوردن البورت" اكثر من خمسين تعريفاً للشخصية للتذليل على الاختلافات في وجهات النظر بين علماء النفس ثم عرفها بأنها: "التنظيم الدينامي في داخل الفرد لتلك الأجهزة النفسية – الجسمية التي تحدد طابعه الخاص في توافقه لبيئته"[8].
2. **الشخصية الاجتماعية** : وهو المفهوم الذي جاء به "اريك فروم" بأنها "النواة الجوهرية لمكون شخصية معظم أعضاء الجماعة التي تطورت نتيجة التجارب الرئيسة ونمط الحياة المشترك في تلك الجماعة.."[9].

---

(8) عبدالخالق، احمد محمد، الأبعاد الأساسية للشخصية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 39.

(9) فروم، اريك، الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبدالمنعم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1972، ص221.

3. **الشخصية الأساسية**: وهو المفهوم الذي يشترك فيه كل من عالم النفس "أبرا هام كاردرنر" وعالم النثربولوجيت "رالف لنتون" حيث يعرفه الأول على انه "تشكيل الشخصية الذي يشترك فيه مجموعة من الأفراد الذين يمتلكون نفس الخبرات الثقافية"[10].

ويعرفه الثاني بأنه "الشكل المتكامل الذي يمد أعضاء المجتمع بقيم ومفاهيم مشتركة ويؤدي إلى إثارة رد انفعالي موحد فيهم تجاه حالات تمس قيمهم المشتركة"[11].

4. **الشخصية القومية** : وتعني "مجموعة من العلاقات الحركية والمتداخلة التي تتشكل منها هذه الشخصية"[12].

أو هي "السمات الشخصية السائدة وأسلوب الحياة المتميز الذي يوجد بين سكان مجتمعات قومية معينة"[13].

5. **الثقافة** : وهنا سنستعير تعريف رالف لنتون بأنها "شكل متكامل من السلوك المكتسب ونتائجه يشترك في عناصره وينقلها أفراد مجتمع معين"[14].

---

(10)International Encyliopedia of the Social Sciences, the Macmillan company and the free press, Newyork, Vol. 11p:15.

(11) لنتون، رالف، الأصول الحضارية للشخصية، ترجمة الدكتور عبدالرحمن اللبان، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964، ص 177.

(12) النوري، قيس، الحضارة والشخصية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، العراق، 1981، ص 127.

(13)International Encyclopedia >>> op. cit. p: 14.

(14) لنتون، رالف، الأصول الحضارية للشخصية، مصدر سابق، نفس الصفحة.

الشخصية الموصلية

مدخل نظري

يربط المختصون في النثروبولوجيا بين موضوعي الثقافة والشخصية والمسوغ العلمي هو ان الشخصية في معناها القومي ليست شيئاً منفصلا عن ثقافة المجتمع، فعلى الرغم من وجود فوارق فردية ناتجة عن عوامل فسيولوجية أو تجارب ذاتية فإن السواد الأعظم من أبناء مجتمع ما تتأطر خبراتهم الحياتية وتصورهم لما يحيط بهم بإطار ثقافي، فلا أحد يستطيع ان يفهم البيئة المحيطة به من دون إطار مرجعي أو مرتكزات عقلية أساسية اكتسبها أساسا من البيئة الاجتماعية المتأثرة بدورها بدرجة معينة بالبيئة الطبيعية.

وعليه فإن الأفراد للمواقف وتفسيرهم لتجاربهم الشخصية حتى الأكثر خصوصية يتم في إطار اجتماعي.. ولما كان الأفراد يتعرضون إلى نفس المؤثرات الاجتماعية بحكم انتمائهم إلى ثقافة واحدة، فإن أنماط السلوك المرغوب وغير المرغوب وطريقة فهم العلاقات بين الأشياء والحوادث تكون متشابهة لان محتوى الثقافة المتماثل ينقل إليهم بواسطة أساليب تنشئة متماثلة مما يرسخ في أذهانهم نماذج مصغرة لثقافة مجتمعهم.. بمعنى ان محددات السلوك وموجهاته ستكون متماثلة وبما ينتج عنه أنماط سلوك متماثلة في المواقف المشابهة، فإذا ما عزلنا المكونات الرئيسة لأنماط السلوك هذه أمكن تحديد الملامح الأساسية للشخصية في المجتمع قيد البحث.

المحددات الرئيسة

بشكل عام يمكن اعتماد المحددات الرئيسة الآتية[15]:

أ. المحددات الوراثية والبيولوجية.

ب. محددات البيئة الجغرافية.

ج. محددات البيئة الاجتماعية.

د. المحددات الثقافية.

وسنحاول فيما يأتي توضيح تأثير كل من هذه المحددات في تشكيل الشخصية الموصلية:

أ. المحددات الوراثية

عادة ما تستخدم هذه المحددات في تحليل الشخصية على مستوى الفرد استناداً إلى مبدأ الفوارق الفردية بين الأشخاص سواء من الناحية الجسمانية أو من نواحي الاستعدادات ومنها ما يتصل بكيمياء الجسم والغدد الصماء وغيرها من مؤثرات بيولوجية تظهر على شكل نمط سلوكي.

اما بالنسبة للجماعة أو لمجتمع محلي معين فلا يمكن القول بوجود تأثيرات بيولوجية مباشرة، ولكن في حالة المجتمعات التقليدية التي ظل الأفراد فيها ولفترات زمنية طويلة يتفاعلون مع بعضهم من دون أن تطرأ عليها تغيرات ديموغرافية مهمة فإن من المتوقع وبسبب الاختلاط الناتج عن الزواج الداخلي ان يظهر شكل من أشكال التمركز الوراثي والذي يعلن عن نفسه على شكل صفات جسمانية مثل

(15) بيومي، محمد احمد، الانثروبولوجيا الثقافية، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 200.

لون البشرة، أو شكل العينين، أو الطول وغيره بحيث يشترك الأفراد في بعض السمات العامة، ونفس الشيء نفسه يقال عن تمركز المشكلات البايولوجية.

ومن الواضح ان هذا الكلام تقل قيمة كلما اتسع حجم المجتمع أو كلما تعرض إلى تغيير في التركيبة السكانية.... وعليه يمكن القول إن الموصل وعلى الرغم من كونها.. أو بسبب كونها ملتقى تجاريا فإن نوعاً واضحاً من التمركز الذاتي يغلب على سكانها، فأبنائها في الغالب يفضلونها على غيرها من المدن، وفيما يخص العادات والقيم يجدون مثل غيرهم من أبناء المجتمعات انها لديهم الأكثر صحة وساد لديهم لفترات طويلة من الزمن نظام الزواج الداخلي، أي أن أبناء المدينة يفضلون تفضيلاً كبيراً الزواج من فتيات من داخل المدينة مما ساعد وعلى مر الأجيال في رسم مظهر محدد يكاد يشبه الشخص الأبيض البشرة المائلة للسمرة الخفيفة، ذو الشعر الأسود الأجعد المشوب بلون كستنائي، طويل القامة نسبياً، المكتنز الجسم، ذا العينين البنيتين.

ب. محددات البيئة الجغرافية – التاريخية

عادة ما يعتمد الباحثون البيئة الجغرافية وحدها كمحدد ولكنا وجدنا من المناسب إضافة البعد التأريخي لأن ما ندرسه هو مجتمع مدينة موغلة في القدم تاريخيا وتكوّن هذا المجتمع هو حصيلة التفاعل بين عوامل التأريخ وعوامل الجغرافية.

فالموصل هي الوارثة المعتمدة لتأريخ حضاري طويل وأصيل، حيث كانت مركز أولى اعظم الإمبراطوريات في التأريخ وهي الإمبراطورية الآشورية والمعروفة على أنها إمبراطورية عسكرية محاربة امتدت على أقاليم شاسعة من العالم الذي كان معروفا حينها واليها تعزى الكثير من الاختراعات ولا سيما الحربية، كما كان لها فضل السبق في إنشاء أول مكتبة في تأريخ العالم، ولا شك

أن هذه المميزات طبعت المجتمع بطابعها، فعرفت الموصل على مدى تأريخها كمدينة محاربة، أهلها لذلك وقوعها على عقدة مواصلات من اكثر العقد أهمية في تأريخ المنطقة هذا الموقع المهم في الستراتيجية العسكرية هو نفسه كان أحد العوامل المهمة في نشأة الأهمية التجارية للمدينة، فإذا علمنا أن المدينة مركزاً لإقليم زراعي خصب توضحت لدينا صورة المدينة التي تصب فيها المنتجات الزراعية لتخلق سوقاً تجارة رائجة تمد علاقاتها مع الكثير من المدن والأقاليم في جهاتها الأربع، مع خصوصية واضحة لبلاد الشام مما كان له اثر فريد في تشكيل ثقافة المدينة[16]. وهكذا تتابعت فصول العلاقة بين تأريخها وجغرافيتها، فحين تكون الغلبة لأيام الحرب فهي موقع إستراتيجي عسكري فائق الأهمية تتجمع فيه الجيوش وتلتقي مع ما يتبع ذلك من فوران حماسي لدى أبنائها وإعجاب بحياة الجندية ومآثرها وبطولاتها، وحين تضع الحرب أوزارها فهي ملتقى تجاري استراتيجي كذلك وككل منطقة تجارية تزدهر بالسلم وتنمو فيها الشهية إلى الربح ويتنافس التجار لكسب الزبائن والصفقات، مع ما يتبع ذلك من أنماط قيمية وأنساق معيارية وعلى هذه الخلفية امتزجت في المدينة ثقافتان عسكرية محاربة، وتجارية، وإذا أطرنا هذا بالعمق العربي الإسلامي والذي هو في أصوله عمق بدوي هذبه الإسلام وجدنا دليلنا الأهم لفهم مكونات الصورة.. فالبداوة ثقافة تغالب كما يقول الدكتور الوردي يمكنها ان تلتقي بسهولة مع ثقافة تاريخية محاربة، كما أنها لا تحترم من المهن سوى التجارة وهذا يوصلنا لفهم هذه التركيبة العسكرية – التجارية والتي ازعم أنها سيطرت على القواعد الأساسية للتنشئة الاجتماعية التي خلقت بدورها

(16) محمود، موفق ويسي، ود. محمد حربي حسن، الحياة الاجتماعية في الموصل، موسوعة الموصل الحضارية جامعة الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، ج5، 1992، ص214.

النمط الخاص للشخصية الموصلية من خلال تفاعلها مع النمط الأساس لمجتمع ذكوري.

ج. المحددات الاجتماعية

أعادت القبائل العربية تشييد الموصل على أصول الحصُن الآشوري القديم وسكنتها ومنحتها طابعها العربي الإسلامي.. وقد وصف "ابن الكواء" الموصل بقوله "قلادة أمة فيها من كلٍ خرزة"[17] وهذا تعبير دقيق عن مجتمع تعددي من دون تزاحم أو صراع، ولعل من الأسباب المهمة في خلق التجانس ان المدينة كانت سوقاً تجارية رائجة.. [18] أي انه هناك دائما متسع للمجتمع.. وإشارة إلى الصفة التجارية لمدينة تعتمد على إقليمها، فإن علاقات سكانية واجتماعية كانت دائمة الحدوث، فالهجرة من الريف إلى المدينة تعني تفاعلاً بين أسلوبين من أساليب العيش.. ويحتاج الأمر إلى غلبة أحد الأسلوبين أو ظهور نمط جديد توفيقي..... وبسبب قبول التنوع والاختلاف الذي أظهرته الثقافة العربية – الإسلامية وجدت الاقليات لنفسها ملاذاً في مدينة ليس في ثقافتها الأساسية عناصر التعصب مما أوجد إمكانية حقيقية لقيام تناغم بين مختلف عناصرها ضمن إطار المصلحة العامة... وهذا لا يعني سكونية العلاقات وإنما يعني توازنها[19].

اما الوحدة الأساسية التي ارتكز عليها البناء الاجتماعي للمدينة فهي الأسرة التي يرى علماء الاجتماع انها حلقة الوصل بين الفرد والمجتمع... وقد كان لها في

(17) انظر.. عبدالماجود احمد السلمان، الموصل في العهدين الراشدي والأموي، مكتبة بسام، الموصل، 1985، ص 50.

(18) رؤوف، عماد عبدالسلام، الموصل في العهد العثماني، مطبعة الآداب، النجف الأشراف، 1975، المقدمة.

(19) محمود، موفق ويسي، ود. محمد حربي حسن، مصدر سابق، ص218.

حالة المجتمع الموصلي المتنوع ثقافياً أهمية استثنائية إذ يتطلب العيش في هكذا مجتمع مسايرة تعتمد التفهم لهذا التنوع من جهة مع الاستناد إلى مركز أمان من جهة ثانية، فضلاً عن غلبة التعصب المحلي الذي يفترض الضعف النسبي في الروابط القبلية والعشائرية، لذا تحولت الأسرة إلى مرتكز ذي أهمية فائقة للفرد حتى انها أصبحت بديلاً عن الكيانات الاجتماعية الأكبر.

الأسرة الموصلية أبوية السلطة يحمي سلطان الأب فيهادها كم كبير من الإرث الثقافي وظهرت في شكل الأسرة الممتدة التي تدور مصالحها وحياة أفرادها حول قطب واحد يمثله رب العائلة الكبير.. ولعل هذا ما يفسر لنا الظاهرة البارزة في المجتمع الموصلي بالانتساب إلى العائلة اكثر من الانتساب إلى العشيرة أو القبيلة، فهم ينتسبون إلى رب العائلة الكبير أو إلى مهنة العائلة[20].

ولفترة طويلة من الزمن حافظت الأسرة الموصلية على كيانها الاجتماعي والتنظيمي بفضل عاملين أساسين، أولهما: مجموعة الأعراف والتقاليد التي غرست التضامن العائلي في أبنائها، وثانيهما: التجاور في السكن إذ كان أبناء الأسرة الواحدة يستمرون في الإقامة في بيوت الآباء أو بالقرب منها بعد زواجهم، حتى اننا نجد بعض الأزقة القديمة محصورة بأسرة واحدة[21].

د. المحددات الثقافية

تأسيساً على ما ذكرنا سابقاً، فان الموصل التي كانت دائماً ملتقى الطرق التجارية والعسكرية كانت كذلك ملتقى طرق الثقافات، بمعنى ان تصب فيها أشكال

(20) محمود، موفق ويسي، ومحمد حربي حسن، مصدر سابق، ص221.

(21) محمود، موفق ويسي، ومحمد حربي، مصدر سابق، ص221.

مختلفة من الثقافات مما يخلق نمطاً ثقافياً خاصاً ويتطلب قدرة مميزة على تمثل التأثيرات الثقافية وإعادة صياغتها في إطار المعطيات المحلية الأساسية، وان كنا نلمح في ثقافة المدينة تفصيلات حياتية تشير إلى ثقافة بلاد الشام فان ذلك بلا شك نتيجة لتركيز اتجاه العلاقات التجارية مع هذه المنطقة ربما بسبب كونها اقرب المنافذ إلى الطرق البحرية بالنسبة للمدينة، إلا ان العامل الثقافي الأكثر تأثيرا كان وجود ثقافات فرعية متنوعة ارتبطت مع بعضها وتفاعلت على أرضية ثقافية اكثر اتساعاً وعمقاً هي الثقافة العربية الإسلامية مما أعطى المدينة طابعاً ثقافياً خاصاً... تنوع ثقافي منسجم تجري التفاعلات بين أعضائه على أساس الفهم المتبادل للاختلافات وقبول بها، مع روابط مشتركة خلقها انتماء كل جماعة ثقافية إلى أحد محوري الثقافة السائدة (العربية الإسلامية) فكل واحدة من الثقافات الفرعية كانت تتصل بالأخرى وتقبلها شريكة لها اما على أساس المحور القومي (الثقافة القومية) أو على أساس المحور الديني (الثقافة الإسلامية) ولما كانت معادلة عربي – إسلامي الثقافية غير قابلة للفصم فإنها شكلت المحور الذي دارت حوله الثقافات الفرعية وارتبطت بعضها من خلاله.

تشكيل الصورة

على خلفية المحددات التي ذكرناها.. يمكننا المضي في رسم صورة الشخصية الموصلية من خلال تحديد سماتها الأساسية، فالتركيبة العسكرية – التجارية سيطرت على القواعد الأساسية للتنشئة الاجتماعية والآتية من المجتمع الأبوي السلطة حيث يكون الأبناء أدوات بيد الأب عليهم الطاعة العمياء تحت ضغط التهديد الدائم بالعقاب (غضب الأب) بحيث يصبح الأنموذج

المطلوب الذي يجب الاقتداء به هو أنموذج " الخوش ولد اللي يسمع الكلام" مما انتج بالنهاية هذه الشخصية الفريدة للمجتمع الموصلي.. شخصية تجمع بين صفات التاجر الذكي والنابه والقادر على اقتناص الفرصة والقادر كذلك على الاستجابة لتقلبات السوق والأحوال مع ما يتطلبه ذلك من قدرة على المراوغة والمبادرة.... وتجمع هذه الصفات مع صفات العسكري المحارب التي إيجازها الصرامة والاعتزاز بالنفس والطاعة لمن بيده السلطة وفي الأوضاع التي يظهر فيها تعارض بين الصفات وبسبب صرامة النمط الأبوي للسلطة تراجعت بعض صفات التاجر لتحل محلها صفات العسكري التي تعارضها.... لذا اتسمت هذه الشخصية في شكلها العام بالنباهة والقدرة الكبيرة على مجاراة الأحوال والتغيرات والقدرة على التسويغ النفسي، إلا انها فقدت صفة المبادرة لتحل محلها الطاعة لأولياء الأمور سواء كان ولي الأمر هذا أبا في البيت، أو مديراً للمدرسة أو مسؤولا إدارياً – أو حزبياً أو أية قيادة سياسية أخرى، كما تطلبت إطاعة كاملة ممن هو أدني في سلم توزيع القوة، وهو ما يفسر صرامة المسؤولين الموصليين والتزامهم الشديد بالأوامر والتعليمات والدقة في تنفيذها حرفياً، والتي هي في جوهرها مطالبة المسؤول الموصلي لمن هم بمعيته أو تحت سلطته ان يتصرفوا كما يتصرف هو تجاه من هو أعلى سلطة.. هذا الوضع جعل الموصلي ينجح أيما نجاح في الوظائف التنفيذية العليا.. انه في افضل حالاته عندما يكون الرجل الثاني، لا يتحمل مسؤولية القرار (الذي تعوّد ان يتركه للأعلى) إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً لكنه بارع جداً في تنفيذه بدقة، وربما يفسر لنا هذا النجاح الاستثنائي للموصليين كضباط في الجيش، فالضابط يتبع سلسلة مراجع صارمة تأتيه الأوامر فيها من أعلى ولا مجال للمناقشة، وعليه ان ينفذها بصرامة

كذلك، على من هم أدني ولا يتحمل مسؤوليتها وفي الوقت نفسه يكون محمياً بقواعد التنظيم العسكري.

الموصلي يكون في احسن حالاته الأدائية في الصف الثاني من صناعة القرار، استشاري جيد، منفذ جيد، نائب للوزير، أو معاون للمدير العام هنالك يستطيع ان يبدع في الفهم وتمحيص الأمور وتحديد الاختيارات الممكنة للقرار أو افضل السبل في تنقيذها، ولكنه في اللحظة الأخيرة يترك اتخاذ القرار لمن هو اكثر جرأة.. انه يحتاج للحماية.. وازعم ان ما عرف عن الموصليين من حرص وتخزين للمواد الغذائية انما سببه هذه الشخصية التي تبحث عن الاستقرار والأمان.. – لان الغد مشكوك فيه دائماً، ان القرار ليس بيده، وانما هناك آخر قد يتخذ قراراً يؤثر في مجرى حياته، لذا كان عليه الاستعداد الدائم لتحول رياح السلطة ضده أو انصراف المسؤول عنه...

ملاحظات ختامية

يتطلب الموقف العلمي الصحيح الاعتراف بما يأتي:

1. ان ما ذكرته عن الشخصية الموصلية لا يعني أنها ذات طابع أزلي، وانما تتعرض – كما كل شيء آخر – إلى التغيير – إلا ان مدى هذا التغيير يرتبط بالأحداث ذات التأثير العميق التي يتعرض لها المجتمع... وقد تعرض المجتمع الموصلي إلى الكثير من الأحداث المزلزلة يذكر لنا المؤرخون من أمثلتها حصار نادر شاه للمدينة، وعشنا منها أحداث ثورة الشواف عام 1959 وانهيار النظام السياسي في نيسان 2003.

2. ان هذه الدراسة وليدة الملاحظة بالمعايشة وهي بذلك تتكئ في قسم منها على خبرة الباحث الشخصية، لذا قد يجد باحثون آخرون سمات أخرى بدت للباحث اقل وضوحاً وأهمية... وقد سعى الباحث إلى التقليل من أخطاء التحيز والتعصب اعتماداً على اهتمامه في مجال الانثروبولوجيا الثقافية من جهة وعلى التدريب الميداني الذي الزم به نفسه لسنوات عديدة.
3. ان هناك جانباً مغفلاً في هذه الدراسة وهو شخصية المرأة الموصلية والتي تعرضت إلى المؤثرات نفسها ولكن بدرجات من الحدة والتركيز متفاوته فلأنها لم تكن تخرج إلى الشارع وتتعامل في سوق المدينة فإن تأثيرات مثل الصراعات التجارية والحروب والاختلاط بالثقافات الفرعية لم تكن ذات تأثير جاد عليها – حيث إن المرأة الموصلية كانت تتعرف – وربما لا زالت بدرجة كبيرة – على المدينة وعلى الأحداث من خلال الرجال في البيت (الأب والاخوة ومن ثم الزوج والابن) فلن تكون بذلك سوى صورة عنهم.. فضلاً عن استمرار وجودها رهينة البيت مع نساء أخريات (أم، أخوات، حماة، بذات الحما، سلفات) لا شك هيأ عالماً خالصاً مختلفاً عن عالم الرجل.. ينعكس عليه عالم الرجل وأفكاره ومؤثراته.. إلا انه عالم تافه سخيف – بنظر الرجل – لا يستحق إلا القليل من الالتفاف إليه.. مما جعل عالم النساء هذا مكاناً خاصاً تدور فيه مؤامرات التزويج والطلاق والإيقاع بالأخريات أو التعاون معهن ضد الرجل أو التصارع معهن من اجل كسبه فهو تاج الرأس والحامي لهن.... وفي هذا الصدد يعترف الباحث انه يحتاج إلى الكثير من المساعدة من داخل هذا القطاع الذي بقي أرضا بكراً لم يرتدها أحد من الباحثين أو وهو الأفضل الباحثات وبأمل ان تتوفر الفرصة لدراستها.

Abstract

Mosuli Personality A Socio-Anthropological Study

Muafak waissi Mahmood [(*)]

The present research is a primary attempt to deduce mosul city from asoico-anthropological point of view in order identify the most important limitations of the Personality. It. thus reveals the basic features of it.

The researcher has started extracting some general results of the studies of national personality along the second half of the 20th Century.

Starting from the pioneering attempt of Dr. Ali Al wardi.

The researcher depends on four basic limitations:

a. Hereditary and biological limitations.
b. Limitations of geographical environment.
c. Limitations of sociological environment.
d. Cultural Limitations.

(*)Assistant prof. of cultural Anthropology- Dept. of Sociology – College of Arts L University of Mosul

The researcher has tried to extract the effects of these limitations by analysing the historical and geographical data and their effects on the forms and values of social and cultural building. He then draws an image of mosuli personality which combines both the characters of a smart clever merchant.

Who can snipe chances and is able to respond to the ups and downs of business affairs with the capacity of dodging. He also carries the characters of a military worrier. Who is tuff self-confident and obedience. In some opposing mothers, the character of amilitary man replaces those of merchant. There fore, this character is generally characterized by a sharp mind and the great ability to cope with the different situations and self communing. Such a personality, however, loses the future of initiating to be replaced a headmaster, or a party or political official. Full obedience is required by those of lowness in the power hierarchy. This explains why mosuli is extremely successful when put in the second rank, in executive functions, and as a consultative rather than to be in a position to make decisions.